﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استكمال للقصَّة الَّتي بدأت بها الآية السّابقة؛ لتكشف عمّا آل إليه حالُ نذرِ أمِّ مريم؛ إذ طوت القصّة أشْهُرَ الحَمْلِ بالموهوب، وأتت بساعة الولادة، فلمّا وضعت الأمُّ المولودَ؛ علمت أنَّها أنثى، فحكت الآيةُ حالها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وكانت قد نوت تحريرَ ما في بطنها في خطابها لربِّها في الآية السّابقة: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾؛ طلبًا لأنْ يكون جنينُها الَّذي في بطنها ولدًا، يخدمُ في بيت المقدس.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَضَعَتۡهَا﴾: جذر الكلمة (وَضَع)، وهو أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْخَفْضِ لِلشَّيْءِ وَحَطِّهِ، والمَوْضِعُ المكان، ووَضَعَ الشَّيءَ من يده يضعه وَضْعًا، ومَوْضِعًا، ومَوْضُوعًا أيضًا، والوَضِيعَةُ: واحدة الوَضَائِع، وهي أثقال القوم، يقال: أين خلَّفوا وضائعهم؟ ووَاضَعَه في الأمر، أي: وافقه فيه على شيء، ووَضَعَتِ المرأةُ وَضْعًا: ولدت[1]، والمعنى المحوريُّ: الهُوِيُّ بالشَّيء إلى مقرٍّ منخفض يثبت فيه (عن حيِّز عالٍ كان فيه)[2]، والوضع: الولادة، وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ﴾، قال الحرالّي: من الوضع: وهو إلقاء الشَّيء المستثقل[3].

2) ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: جذرُ الكلمة هو (رَجَم)، وأصل الرَّجم: الرَّمي بالرِّجام، أي: الحجارة[4]، والرُّجْمة بالضَّمِّ: واحد الرُّجَم، والرِّجَام: وهي حجارة ضخام، والشَّيطانُ الرَّجِيمُ: المطرود عن الخيرات، وعن منازل الملأ الأعلى، وفُسِّرت صفته هذه بالمرجوم:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وأبو بكر الرَّازيِّ، مختار الصحاح: (وضع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وضع).
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/351.
(4) الراغب، تفسير الرَّاغب: 2/528. الزمخشري، أساس البلاغة: 1/341، وابن سيده، المحكم: (رجم).

بالكواكب، أي: شأنه وشأن قَبيلِه أن يُرْجموا بالكواكب، أو: رجيم ملعون مرجومٌ باللَّعنة مبعدٌ مطرود، وكلُّ (رجيم) في القرآن؛ فهو بهذا المعنى، ويستعار الرَّجم للرَّمي بالظَّنِّ، والكلام المقرِّع، والتَّوهُّم، وللشَّتم، والطَّرد، نحو قوله تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: 22]، وقوله تعالى: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]، أي: لأقولنَّ فيك ما تكره.

والمعنى المحوريُّ: ثِقَل عظيم يُثْقَل به الشَّيء بنحو الطَّرح والقذْف، كتلك الرُّجْمة، "ويتحقَّق عِظَم الإثقال بقوَّة قذف الشَّيء، ولو لم يكن عظيم الثِّقل في ذاته، كرجم الفرس الأرض بحوافره عند ما يجتهد في جَريه"، ومن هنا "الرَّجْم: القتل، وإنَّما قيل للقتل: رَجْم؛ لأنَّهم كانوا إذا قتلوا رجلًا؛ رموه بالحجارة، حتى يقتلوه، وبه قيل في تفسير قول قوم نوح له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشُّعراء: 116]، أي: بالحجارة، فكأنَّ الأمر هنا تهديد بالقتل، والرَّجمُ في القرآن: القتل، وقيل: المعنى: من المرجومين بالحجارة، والرَّجمُ: اسم لما يُرجَمُ به الشَّيء، والجميع الرُّجوم، وهي الحِجارةُ، والرُّجُومُ: الَّتي تُرمى بها الشَّياطين، [1]، وقيل ذلك للنَّجم المنقضِّ، لقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: 5][2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فلمَّا تمَّ حملُ امرأةِ عِمران، ووضعت مولودَها؛ قالت: ربِّ؛ إنِّي وضعتها أنثى، لا تصلحُ للخدمة في (بيت المقدس) والانقطاعِ للعبادةِ فيه؛ بسبب ما يعتريها ممَّا يعتري النِّساء، ففي كلامِها نوعُ عُذْرٍ من ربِّها، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، وسوف يجعلُ الله لها شأنًا، وقالت: وليس الذَّكرُ الَّذي أردتُ للخدمة، كالأنثى في ذلك؛ لأنَّ الذَّكَر أقوى على الخدمة وأقْوَم بها، وإنِّي سمَّيتها مريم - وكلمة مريم معناها في لغتهم: العابدة، أو خادمُ الرَّبِّ، فأرادت بهذه التَّسمية التَّقرُّب إلى الله والالتماس منه أن يعصمها، حتى يكون فعلها مطابقًا لاسمها - وإنِّي حصَّنتها بك هي وذريَّتها من الشَّيطانِ المطرودِ من رحمتك[3].

(1) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رجم).
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/528.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 1/208، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّة تأنيث الضَّمير في قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾:

حـمـلـه عـلى المعنى في (ما) الـذي كـان أنثى في عِلْمِ الله

قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، أي: فلمَّا وضعت النَّذيرةَ؛ ولذلك أنَّث، ولو كانت (الهاء) عائدة على﴿مَا﴾ الَّتي في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾؛ لكان الكلام: فلمَّا وضعته؛ قالتْ: ربِّ إنِّي وضعته أنثى[1]، باعتبار أنَّ ما في بطنها هو الجنين الَّذي كان يُرتجى أن يكون ذكرًا، قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النَّجم: 32]، وذهب أبو حيَّان الأندلسيُّ إلى أنَّه أنَّث الضَّمير في ﴿وَضَعَتْهَا﴾؛ حملًا على المعنى في ﴿مَا﴾؛ لأنَّ ما في بطنها كان أنثى في علم الله تعالى[2].

سرُّ تكرار عنوان الرُّبوبيَّة في مقام التَّحَسُّرِ:

تـذكُّـرُ وصـف الإحـسـان عـنـد الأحـزان اسـتـمـطـار للامتنان

وخاطبت امرأة عمران ربَّها على سبيل التَّحسُّرِ، وهو ما خرج إليه النِّداء، على ما فاتها من رجائها، وخلاف ما قدّرت؛ لأنَّها كانت ترجو أن تلد ذكرًا يصلح للخدمة، ولذلك نذرته محرّرًا[3].

فيصوِّر القرآن مشهد ذهولها في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، أي: تَحَسُّرًا ذاكرةً وصف الإحسان استمطارًا للامتنان[4].

بلاغةُ المَجَازِ المُرسَلِ في اللَّفظِ المُرَكَّب:

يلزم من الإخبار بـضـدِّ المـرادِ المحبوبِ التَّحسُّرُ والـحـزنُ على الفائت

التَّركيب في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ - بما اشتمل عليه من الخصوصيَّات - يحكي ما تضمَّنَه كلامُها في لغتها من المعاني: وهي الرَّوعة والكراهية لولادتها أنثى، ومحاولتها مغالطة نفسها في الإذعان لهذا الواقع، ثُمَّ تحقيقها ذلك لنفسها وتطمينها بها، ثُمَّ انعكاس ذلك تحسُّرًا في نفسها، فلذلك أودع حكاية كلامها

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/333.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/116.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/116.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/351.

خصوصيَّات من العربيَّة، تعبّر عن معانٍ كثيرةٍ قصدتها في مناجاتها بلغتها[1]، وهذا من بلاغة القرآن ولغته في الإيجاز، فهي تشير بقرينة الحال إلى مشاعر التَّحسُّر الَّتي تشغل قلبها ساعتئذٍ[2].

ولمَّا استعملت هذا الخبر في الإنشاء؛ استعملته برمَّته على طريقة المجاز المرسل في اللَّفظ المركَّب[3]، ومعلوم أنَّ المركَّب يكون مجازًا بمجموعه لا بأجزائه ومفرداته[4]، والعلاقة بين المعنى الأصليِّ: وهو الإخبار، والمعنى المجازيِّ: وهو التَّحسُّر وإظهار الحُزْنِ: (اللُّزوم)؛ إذ يلزم من الإخبار بذهاب الشَّيء المحبوب المعلوم للجميع التَّحسُّر والحزن عليه، ويعكس هذا التَّحوُّل في الأسلوب من الخبر إلى الإنشاء ما يدور في النَّفس من تحوُّلات متسارعة، بين الطُّمأنينة الَّتي كانت تغمر النَّفس، إلى حالة الاضطراب والتَّساؤل، عمَّا يكتنف مستقبل هذه الأنثى الَّتي كانت ترتجيها ذكرًا.

فائدة تأنيث الضَّميرِ في ﴿وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾:

المُسارعة إلى عَرْض ما دَهَمها من خيبة الرَّجاء

أُنِّث الضَّمير في ﴿وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ باعتبار ما دلَّت عليه الحال اللّازمة في قولها أنثى؛ إذ بدون الحال لا يكون الكلام مفيدًا، فلذلك أُنِّث الضَّمير باعتبار تلك الحال[5]، فقولُه تعالى: ﴿أُنثَىٰ﴾ حالٌ مؤكِّدة من الضَّمير، أو بدلٌ منه، وتأنيثُه للمسارعة إلى عَرْض ما دَهَمها من خيبة الرَّجاء، وإنّما قالته تحزُّنًا وتحسُّرًا على خيبة رجائِها وعكسِ تقديرِها؛ لما كانت ترجو أن تلدَ ذَكَرًا[6]، ولو كان النَّظم: (وضعت أنثى)؛ لما أظهر التَّعبير ذلك التَّحسُّر، ولَما كشف عن خيبة رجائها وحزنها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.

(2) عبد الرحمن حبنَّكة، البلاغة العربية: 1/50.

(3) المجاز المرسل في اللّفظ المركب: هو لفظ مركّب يستعمل بهيئته التركيبيَّة في غير المعنى الَّذي وُضِعَتْ له صيغة جملته في اصطلاح التَّخاطب، لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، ويكون هذا المجاز في قسمين: القسم الأول: المركَّبات الخبرية، القسم الثَّاني: المركَّبات الإنشائيَّة، فقد تخرج عن دلالتها الخبرية أو الانشائية مجازًا للدَّلالة بها على معنًى آخر. ينظر: عبد الرحمن حبنَّكة، البلاغة العربية، ص: 679 - 683.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/232.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/28.

توجيه ما ورد من القراءات في ﴿وَضَعَتْ﴾ وبلاغتها:

الإخبار بعظيم شـــأن ما وضعتْ، وبيان أنّ ما يختاره الله الخيرُ كُلُّهُ

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ بسكون التّاء الّتي للتّأنيث[1] على الإخبار من ربِّ العالمين، وهو تعظيمٌ من جهته تعالى لموضوعها، وتفخيمٌ لشأنه، وتجهيلٌ لها بقدره، أي: والله أعلم بالشّيء الّذي وضعته، وما علق به من عظائم الأمور، وجعلها وابنها آية للعالمين، وهي غافلة عن ذلك، والجملة على هذه القراءة اعتراضيَّة[2].

إظـهـارُ غـايـة الإجـــلال مع كمال الخضوع اعتذار إلى ربِّها وتسلية لقلبها

وفي قراءة ابن عامر، وشعبة عن عاصم، ويعقوب: بضمِّ التَّاء ﴿وَضَعْتُ﴾[3]، على ضمير المتكلِّمة امرأة عمران، مع الالتفات من الخطاب إلى الغَيبة؛ إظهارًا لغاية الإجلال، فيكون ذلك منها اعتذارًا إلى الله تعالَى؛ إذ أتت بمولودٍ لا يصلُح لما نذرته من السَّدانة، أو تسليةً لنفسها على معنى: لعلّ الله تعالى يجعل فيه سرًّا وحكمةً، ولعلَّ هذه الأنثى خيرٌ من الذَّكر، فوجه الالتفات حينئذٍ ظاهر[4]، وعليه فاسم الجلالة التفات من الخطاب إلى الغَيْبة، فيكون قرينة لفظيَّة، على أنَّ الخبر مستعمل في التَّحسُّر[5].

فائدة لام العهد الخارجيّ الكنائيّ[6]:

المعهود أن يتولّى الذّكور خدمة دور العبادة لا الإناث

التَّعريف باللَّام في ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ للإشارة إلى معهود بين المُخاطِب والمُخاطَب، وهي اللَّام الَّتي يتقدَّم لمدخولها ذِكْرٌ كنائيٌّ، أي: غير مصرَّح به مبهمٌ، تعيِّنه القرائن، وتسمّى حينئذٍ لام العهد الخارجيِّ

(1) وهي على قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائيّ وحفص عن عاصم، ينظر: ابن مجاهد، السَّبعة: 204، وابن الجزري، النشر: 2/239.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/28.

(3) ابن مجاهد، السَّبعة: 204، وابن الجزري، النشر: 2/239.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/28.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.

(6) لام العهد الخارجي: هي التي يراد بمدخولها معينٌ في الخارج فردًا أو أكثر، وتعينَّ مدخولها، إمَّا: لتقدُّم ذكره صريحًا أو كناية، وإمَّا لتقدُّم العلم به سواء كان حاضرًا أم غير حاضر، فالذِّكر الصَّريح مثل: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾، والكنائيُّ مثل: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾، فإنَّ الذِّكر لم يتقدَّم ذكره صريحًا، بل كناية في قوله تعالى: ﴿نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾، فإن ﴿ما﴾ محتملة للذَّكر والأنثى، ولكن بانضمام قيد التَّحرير إليها صار مرادًا بها الذَّكر. ينظر: القزويني، الإيضاح: 2/29.

الكنائيّ[1]، ويسمّى بالعهد الذهنيِّ، وهو ما تقدَّمَ فيه ذكر المسنَد إليهِ تلويحًا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، فإنَّه لم يسبق ذِكْر ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ صريحًا، وإنَّما أُشيرَ إليهِ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾، فإنَّ ﴿مَا﴾ يرادُ منه الذَّكَر؛ لأنَّه القابلُ لخدمةِ المسجدِ، وقد كانوا لا يُحرِّرون إلَّا الذُّكورَ، وهو المعنيُّ بـ ﴿مَا﴾، ويسمَّى: كنائيًّا[2]، وفائدة ذكر الذَّكَرِ: أنَّ فحوى الخطاب جميعه كان يدور حول قضيَّة الذَّكَرِ المُحرّر لخدمة بيت المقدس، من هنا تظهر فائدة ما ذكرنا.

وقد تكون اللَّام مفيدة معنى الجنس والحقيقة، فتفيد عموم التَّفريق بين الجنسين مع التَّفاضل، كقولك: الرَّجل خير من المرأة، أي: جنس الرَّجل خير من جنس المرأة[3].

معنى التَّشبيه المنفيّ في قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾:

خروج التَّشبيه إلى معنى الاعتذار، وبيان أنّ المَوْهوبَ خيرٌ من المطلوب

ونفي المشابهة بين الذَّكر والأنثى يُقصد به معنى: التَّفضيل في مثل هذا المقام، كقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: 32][4]. ولذلك لا يتوخُّون أن يكون المشبَّه في مثله أضعف من المشبَّه به؛ إذ لم يبقَ للتَّشبيه أثر، ولذلك قيل هنا: وليس الذَّكر كالأنثى، ولو قيل: وليست الأنثى كالذَّكر لفهم المقصود.

ومن معاني نفي التَّشبيه ما يأتي:

الأوّل: تفضيل الذَّكر على الأنثى؛ لاعتبارات ذكرها الفخر الرَّازي نلخِّصها فيما يأتي: أحدها: في شرعهم أنَّه لا يجوز تحرير الذُّكور دون الإناث، والثَّاني: أنَّ الذَّكر يصحُّ أن يستمرَّ على خدمة موضع العبادة، ولا يصحُّ ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النُّسوان، والثَّالث: الذَّكر يصلح لقوَّته وشدَّته للخدمة دون الأنثى، فإنَّها ضعيفة لا تقوى على الخدمة، والرَّابع: أنَّ الذَّكر

(1) حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة، ص: 119.
(2) عبد الرحمن حبنّكة، البلاغة العربية: 1/441.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص 210.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/234.

لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالنَّاس، وليس كذلك الأنثى، والخامس: أنَّ الذّكر لا يلحقه من التُّهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى، فهذه الوُجوهُ تقتضي فضلَ الذَّكر على الأنثى في هذا المعنى[1]، وفيها تأكيدُ الاعتذار ببيان أنَّ الذَّكر ليس كالأنثى في الفضيلة والمزيّة والصَّلاحِيَّةِ[2]، ومن هنا فقد خرج هذا التَّشبيه إلى معنى الاعتذار، قال السُّدِّيُّ: ظنَّت أنَّ ما في بطنها غلام، فلمَّا وضعت جارية؛ اعتذرت[3]، وجعلوا نفي المشابهة على بابه من نفي مشابهة المفضول للفاضل، وإلى هذا مال صاحب الكشَّاف، وتبعه صاحب المفتاح[4].

والقول الثَّاني: تفضيل الأنثى الموهوبة على الذَّكر المطلوب: فكأنَّما قيل لها: وليس الذَّكر الَّذي رغبت فيه بمساوٍ للأنثى الَّتي أعطيتها؛ لو كانت تعلم علوَّ شأن هاته الأنثى[5]، فكأنَّها قالت: الذَّكر مطلوبي، وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذَّكر الَّذي يكون مطلوبي، كالأنثى الَّتي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدلُّ على أنَّ تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله، عالمة بأنّ ما يفعله الرَّبُّ بالعبد خير ممَّا يريده العبد لنفسه[6]، ولكن قدّم الذَّكَرَ هنا؛ لأنَّه هو المرجوُّ المأمول فهو أسبق إلى لفظ المتكلِّم[7].

دلالة الاعتراض بأكثر من جملة:

بيانُ أنَّ مَنْ فَوَّضَ أمرَهُ إلى الله لا ينبغي أن يتعقَّبَ تدبيرَهُ

الاعتراض[8] بأكثر من جملة وقع أثناء الكلام، وكقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، وما بعده، اعتراض بأكثر من جملة[9].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24. وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/276.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/234.
(8) الاعتراض: هو أن يؤتى أثناء الكلام، أو بين كلامين متّصلين معنًى بجملة أو أكثر لا محلَّ لها من الإعراب، ولنكتة سوى دفع الإبهام، فخرج الاحتراس. ينظر: ابن معصوم، أنوار الرّبيع، ص: 386، حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/145.
(9) حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/145.

و قد جاء بين كلامين متَّصلين معنًى، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ ليس من قول أمِّ مريم، وإنَّما هو اعتراض من كلام الله سبحانه، والنُّكتة فيه تعظيم الموضوع وتجهيلها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشّيء الَّذي وضعت، وما علق به من عظائم الأمور، وجعلها وولدها آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا علم لها به؛ ولذلك تحيّرت، وتحزَّنت، ثم زاده بيانًا وإيضاحًا بالجملة الثَّانية من الاعتراض، فقال: وليس الذَّكر الَّذي طلبت، كالأنثى الَّتي وهبت لها[1].

سبب الإعلام بالتَّسمية في قوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾:

التقرُّب إلى الله بوفاء نذرها كاملًا عينًا واسمًا

وقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾، في تسميتها فَورَ وَضْعِها إشارةٌ إلى وُقوع النَّذْر المتقرَّب به إلى الله كامل الوجود اسمًا ورسْمًا، ومقصودها من هذا: الإخبار بالتَّسمية للتَّقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يكون فعلُها مطابقًا لمعنى اسمها، فإنَّ معنى مريم: خادم الرَّبِّ بلغتهم[2]، فَهِيَ وإن كانت غير صالحة لخدمة بيت المقدس؛ فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات، وكأنَّها أرادت بهذه التَّسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصمها من آفات الدِّين والدُّنيا؛ لأنَّ المعنى: وإنِّي سمَّيت هذه البنت المولودة لي: عابدة الرَّبِّ[3].

وفائدة ذكر التّسمية أيضًا: أنَّ هذا الاسم في لغتهم اقتضى معنى التَّحرير[4]، وقيل: حَتَّى تعرف هَل وَقع ذَلِك الِاسْم بِرِضا الله تَعَالَى حَتَّى يُغيَّر أَو يُقرَّر[5]، والجملة عطف على ما قبلها ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ من مقالها، وما بينهما اعتراض، وإنّما ذكرت ذلك لربّها تقرُّبًا إليه، وطلبًا؛ لأن يعصمها، ويصلحها حتى يكون فعلها

(1) ابن معصوم، أنوار الرّبيع، ص: 386.
(2) حقق ذلك رؤوف أبو سعدة في كتابه: من إعجاز القرآن العلم الأعجمي في القرآن: 2/251 - 262.
(3) القنوجي: فتح البيان: 2/223، والهرري، حدائق الروح والريحان: 4/278.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/530.
(5) أبو المظفّر السّمعاني، تفسير السّمعاني: 1/313.

مطابقًا لاسمها[1]، وإظهارُ أنَّها غيرُ راجعة عن نيَّتها؛ وإن كان ما وضعته أنثى، وأنَّها إن لم تكن خليقةً بسِدانة بيت المقدس؛ فلتكنّ من العابدات فيه[2].

فائدة المضارع في ﴿أُعِيذُهَا﴾:

مراقبة النَّفس تقتضي تجديد الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ عطف على ﴿إِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾، وصيغةُ المضارع للدّلالة على الاستمرار والتَّجدُّد، أي: أُجيرُها بحفظك؛ إذ تحكي حالها، أنَّها ستكون في دوام على حال استعاذتها بك وذرِّيَّتها من الشَّيطان الرَّجيم؛ لما يُعلم من إلحاح الشَّيطان على العبد، ومراجعته على ارتكاب الآثام وتعاطي الذُّنوب، فاحتاج ذلك من العبد المراقبة لنفسه، وتجديد الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم، كما يبيِّن ذلك الموقف من أمِّ مريم أيضًا مقدار التَّواصل الرُّوحيِّ لبيت النُّبوَّة، والاتِّصال بالله تبارك وتعالى، وبراعة الدُّعاء والإنابة عندهم، وجلال مواقفهم.

بديع تلوين الخطاب بطريق الالتفات والجناس:

تصوير حالة الأمِّ بين مُراد نفسها، وقدر الله بها

من جميل بيان الآية ما فيها من تلوين في الخطاب: (من الغائب إلى المتكلِّم فإلى الغائب فإلى المُتكلِّم)، في وصف حالها، وهي تُفجأ بما وضعت، فقال: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ للغائب، ثُمَّ إلى المتكلِّم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، ثُمّ التفت إلى الغائب، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، في كلمة واحدة هي ﴿وَضَعَتْ﴾، كان الرَّابط فيها جناس الاشتقاق بين ﴿وَضَعَتْهَا﴾ و﴿وَضَعْتُهَآ﴾ و﴿وَضَعَتْ﴾، ثُمَّ التفت إلى المُتكلِّم، فقال: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾، وهذا التّناوب في التَّحوُّل من الغائب إلى الحاضر في حالات متناوبة، تصوير عميق لحالة النَّفس وإرباك موقفها، وتقلُّبات ما كان يجول في خواطرها.

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/29.

ثُمّ نرصد بين قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾، وقوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾ تلوينًا من الغائب المتمثِّل في اسم الجلالة، والخطاب المتمثِّل في ﴿بِكَ﴾، والانتقال من الغائب المتمثِّل في ﴿وَضَعَتۡ﴾ إلى المتكلِّم في ﴿أُعِيذُهَا﴾: يضيف انطباعًا إلى حالة العودة إلى واقع الحال بعد اضطراب نفسيٍّ قصير، ثُمَّ الرِّضا بأمر الله وقضائه، ومحاولة التَّطابق والتَّوافق بين ما كان مرادًا وبين ما قدَّره الله تعالى، والعودة إلى الله في الدُّعاء والاستعاذة من الشَّيطان الرَّجيم.

فائدة تقديم الجارِّ والمجرور على المعطوف:

إبـــراز كـمـال العناية والأنس بجميل الرِّعاية

قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾عطف على الضَّمير، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِكَ﴾ عليهِ؛ لإبراز كمالِ العنايةِ والأنس بجميل الرِّعاية[1]، ومن جانب آخر: فإنَّه أخَّر ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾، ولم يقل: أعيذها وذرِّيَّتها بك، فيدلُّ ذلك على حالة الاضطراب والخوف على الأنثى الَّتي كانت قد نُذرت، كما يُنذر الذَّكر؛ ليعمل محرَّرًا في بيت المقدس، ففي ذلك دلالة استعجال استحصال الحفظ من الله لها، وتأخير الاهتمام بذرِّيَّتها لما تراه الأمُّ من بُعد الزَّمن لحضور ذرِّيَّتها، وليُعلم أيضًا أنَّ صلاح ذرِّيَّتها آتٍ من صلاحها.

نكتة التَّذييل بذكر الاستعاذة بالله من الشَّيطان:

بيان الحاجة إلى الاستعاذة بالله في كلِّ الأحوال

وقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ المطرود، وأصل الرَّجم: الرَّمي بالحجارة، وعن النَّبيِّ ﷺ: «ما مِن بَني آدم مَوْلودٌ إلَّا يَمَسُّه الشَّيطانُ حِين يُولَد، فيَسْتَهِلُّ صارخًا مِن مَسِّ الشيطان، غير مريم وابنها»[2]، ومعناه: أنَّ الشَّيطان يطمع في إغواء كلِّ مولود يتأثَّر منه إلَّا مريم وابنها، فإنَّ الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/29.
(2) البخاري، الحديث رقم: (3431)، ومسلم، الحديث رقم: (2366).
(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/14.

فائدة تأكيد الإخبار بإنَّ في مواضع عديدة:

المؤمن راضٍ بقضاء الله تعالى، مُسلّمٌ بقدره

تكرَّرت ﴿إِنِّي﴾ مرّات عديدة، وذلك لزيادة التَّأكيد؛ لأنَّ حال كراهيتها يؤذن بأنَّها سَتُعْرِضُ عنها، فلا تشتغل بها، وكأنَّها أكَّدت هذا الخبر؛ إظهارًا للرِّضا بما قدَّر الله تعالى، ولذلك انتقلت إلى الدُّعاء لها الدّالِّ على الرِّضا والمحبَّة، وأكّدت جملة ﴿أُعِيذُهَا﴾، مع أنَّها مستعملة في إنشاء الدُّعاء؛ لأنَّ الخبر مُسْتَعْمَلٌ في الإنشاء برمَّته الَّتي كان عليها وقت الخبريَّة[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوضع والحطِّ:

قال الرَّاغب: والوضع أعمُّ من الحطِّ، ومنه الموضع، والوضيعة: الحطيطة[2].

فالحطُّ: فيه ضَغْطٌ بقوّة إلى أسفل، يُقال: حُطَّ البعيرُ للمفعول: طَنِيَ، فالتزقت رئته بجنبه، (فالطّنَى: مرض يتمثَّل في هذا)، "المِحَطُّ والمِحَطَّة (آلة): حديدةٌ أو خَشبةٌ يُصْقَل بها الجِلْد حتَّى يلين وَيبرق، ويُنقَش بها الأديمُ، الحَطوط: الأكمة الصَّعبة الَّتي يندفع النَّازل منها بقوَّة كأنَّما ضُغط، واحتطَّ الرّحْلَ: وضعه، ومنه الحَطُّ: وضْع الأحمال عن الدَّوابِّ ونحو ذلك؛ إذْ هو إهباط لارتفاعها بنقل جِرْمها من أعلى إلى أسفل مطاوعة لضَغط ثقلها، وقوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: 58]، فُسِّرت بالحَطِّ: وَضْع الحِمل، أي: حُطَّ عَنَّا ذنوبنا[3].

فلا يتناسب الحطُّ مع الولادة، فضلًا عن كرامة المولود؛ ولذلك أوثر التَّعبير بالوضع؛ لما فيه من سعة الدَّلالة، ولما فيه من معنى إسقاطه من بطنها إلى الأرض، وتكريم المولود – ولو كان سِقْطًا – كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: 2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/234.
(2) الراغب، المفردات (وضع)، والمناوي، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 338.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حطط).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»